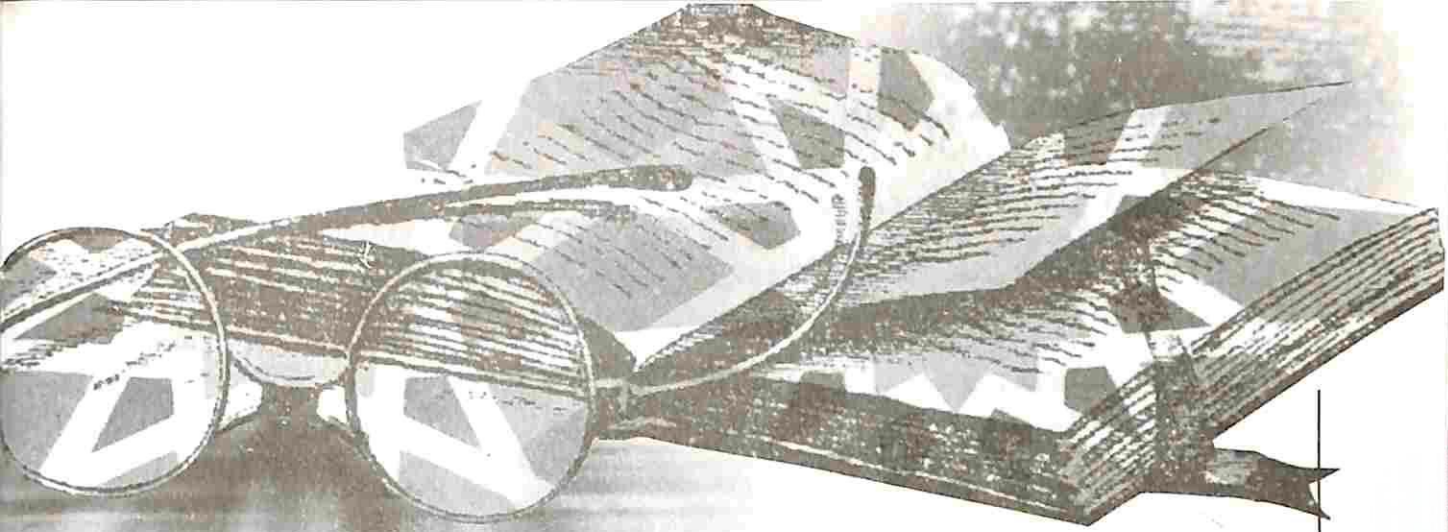

# الأدب الإسلامي والدور الحضاري

د.عبدالعزيز إدريس الخطابي
- المغرب -

**لايماري أحد في أن اهتمام بعض اتجاهات الصحوة الإسلامية بالخطاب السياسي أو العمل التربوي بمفهومه الضيق المنحصر في التربية الروحية فقط - قد فوت عليها فرصة استغلال أهم قنوات الدعوة و التغيير ، وجعلها تهمل واحدا من أهم جوانب الصراع والمواجهة بين الإسلام والآخر..... ذلك هو الميدان الفكري الثقافي الذي يعج بنظريات وطروحات تطلع عليها في كل يوم بجديد ، وتهدف إلى كسب المزيد من المؤيدين والأنصار.**

وإذا كان الخطاب الفكري متعدد الأشكال والأنواع ،فإننا هنا سنقصر الحديث على الأدب الإسلامي بصفته مجالا لم يحظ بما حظيت به المجالات الفكرية الأخرى ، ولم يلق من الاهتمام ما يستحقه كخطاب مؤثر يخاطب العقل و الوجدان معا ، ويسعى إلى التغيير بطرق جد سليمة.

ولقد كان الأدب أحد الأسلحة التي اعتمدها الآخر في محاربته الإسلام ، فكان للغزو الثقافي الأثر الفعال في محاولة طمس معالم الشخصية الإسلامية المتميزة ، والميل بها عن جادة الصواب. فقد عملت الآداب الوافدة على محاربة كل القيم النبيلة ،والتشكيك في ثوابت الدين وتكريس الهزيمة لدى الإنسان المسلم ... ولا غرابة في ذلك لكون هذه الآداب تنبثق من فلسفات ورؤى تخالف الإسلام منطلقا وهدفا، وقد كان لذلك أثره الذي استمر لعقود طويلة من الزمن في غياب حركة أدبية مقنعة وجادة، بل لم يكن الأدب يعني لدى بعض الفئات سوى ضرب من الترف الفكري ، ولم يدر بخلد هؤلاء أن الأثر الذي يحدثه الأدب في النفوس أفتك وأشد خطرا من ذلك الذي تحدثه الأسلحة في الأجسام. هذا في الوقت الذي اعتمد فيه الآخر على الأدب كسلاح تم اختياره بناء على آثاره المذهلة التي ثبتت فعاليتها بمرور الزمن .. وهو ما أدى إلى إنتاج طبقة من المثقفين انهزموا حضاريا ، فأخذوا يرددون ما صدره إلينا الغرب دون تمحيص أو نقد ، مشككين في ذات الوقت في قناعات الأمة الروحية وقيمها ومبادئها.

في خضم هذا الواقع المرير ، كان انبعاث الحركة الأدبية الإسلامية أمراً لازما وطبيعيا للإسهام في تحديد وتجاوز صعوبات المرحلة الراهنة التي تعرف فيها الأمة انتكاسا لم يسبق له مثيل في تاريخها، ولإعادة الثقة إلى النفوس التي أعياها طول التجوال بين هذا المذهب أو ذاك .

يقول محمد العروي :"إن أمامنا اليوم أفكاراً عديدة وأقلاما وكتبا جديدة ، وأدبا يدعونا إلى مواجهات كل ذلك ، حتى نبين لهم زيف

مذاهبهم وافتراءاتهم من جهة ، وحقيقة الإسلام والإسلامية من جهة ثانية ، وعندها نكون قد استجبنا للتحديات استجابة تليق بهذا الأدب المنشود ». (١)

إن الحرب الأدبية جزء من المعركة الحضارية الكبرى رحاها الآن بين الإسلام والآخر ... بل لعل هذه الحرب الأدبية والفكرية عموما هي الأخطر والأشرس ، وهو ما ذهب إليه الأستاذ عمر حسنة حين قال (٢):« لقد أصبح من الأهمية بمكان أن ندرك أن الصراع بين الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة أبدي ،وأن المعارك الفكرية بأساليبها الفنية المتعددة هي الأخطر في حياة الأمم وبنائها الحضاري ، وأن الساحة الفكرية هي الميدان الحقيقي للمعركة ».

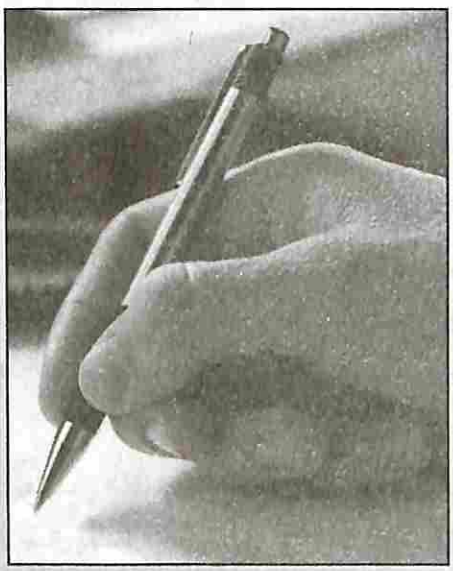

نعم لقد آن الأوان لكي ندرك ذلك ، ولنضرب بعرض الحائط تلك الآراء التي تذهب إلى عدم جدوى الأدب ، وأنه مضيعة للوقت ليس إلا ... »

لقد كان الأدب ولايزال خير معبر عن هموم الأمة وآمالها وآلامها ، وأصدق ناطق بلسانها في فترات القوة و الوهن على السواء. لم يخفت صوت الأدب أبدا ، بل ظل صداحا قويا حتى في أحلك فترات تاريخ الأزمنة التي لا تطرقها أقلام المؤرخين إلا لماما ، ولم يقف الأديب أبدا في برج عاجي ..بل كان حاضرا، جسد الواقع ، وكشف عورته وسعى إلى إصلاحه وتغييره ، فلم تكن مهمته تصويرية مع شيء من الحياد ، وإنما اكتوى بنار الجراح ، فيظهر ذلك على إبداعاته جليا واضحا.

ورغم ذلك ، فقد خف اهتمام الناس بالأدب - كما سبق - نتيجة انعدام الوعي بهذا السلاح ومدى خطورته ، يقول نجيب الكيلاني :« إننا - كإسلاميين - لم نعط الأمر حقه من الاهتمام ، ولم ندرك أبعاد الآثار الفعالة للأدب بصورة صحيحة ، فأغفلنا سلاحا من أهم الأسلحة في المعركة ...(٣) .

ولكن هذا لاينفي وجود طبقة من الأدباء الإسلاميين ، أدركوا القيمة الحقيقية للأدب فكرسوا حياتهم لخدمته ، وخاضوا الطريق الشائك الصعب بإصرار متجاهلين الحواجز التي تعترض مسيرتهم ، وقدموا نماذج رائعة في كل المجالات الإبداعية ، لم تحظ باعتراف وقبول النقاد الإسلاميين فحسب ، بل حازت على اعتراف نقاد كبار على المستوى العالمي (٤)خصوصا بعد أن طالت حركة الترجمة عديدا من النصوص الإبداعية الإسلامية ، وهو ما أتاح لهذا الأدب تجاوز الحدود الجغرافية ، والتعريف بنفسه، وتعدى الأمر إلى تصنيف نماذج منه ضمن روائع الأدب العالمي(٥).

لقد صار من اللازم والضروري إعطاء الأدب ما يستحقه من مساحة حتى يعود ليلعب دوره الحضاري كما كان عليه من قبل ، وإن ذلك هو الكفيل بتصحيح الصورة النمطية « التي رسمتها العديد من الأجهزة في الغرب عن الإنسان المسلم (٦)، وإعطاء صورة صحيحة صادقة عن النموذج الحضاري الإسلامي الذي تتعطش إليه الأجيال غربا وشرقا، ..وبالتالي عدم إهمال أحد أهم الأسلحة في المعركة الحضارية الراهنة.

==========

(١) جمالية الأدب الإسلامي : صـ ٢١١ .
(٢) في تقديمه لكتاب نجيب الكيلاني :« مدخل إلى الأدب الاسلامي » صـ ٧ ـ .
(٣) السابق نفسه صـ ٦٤ ـ .
(٤) قرأ بعض النقاد روايات للكيلاني ، فقال هذا أدب عالمي.
(٥) رواية « السنوات الرهيبة » لجنكيز ضاغجي ، على سبيل المثال لا الحصر .
(٦) انظر كتاب محمد شومان :« العرب والغرب » منشورات مركز دراسات العالم الإسلامي ، مالطا.